الآداب
المجلد:22، العـــدد:01، ديسمبر 2022
الصفحات: 197-211 ISSN 1111 – 4908 EISSN 2588 – 2228

المشهد الأدبي والثَّقافي من منظور المبدع الجزائري / قراءة ثقافية في المجموعة القصصية "جلالة عبد الجيب" للسَّعيد بوطاجين

The literary and cultural scene from the perspective of the Algerian creator A cultural reading in the story collection "His Majesty Abdel Jeeb " by Said Boutadjine

د. طيبي بوعزة [1]

[1] جامعة أحمد بن يحي الونشريسي، تيسميلت – الجزائر، ibrahimbouaza@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/06/13 تاريخ القبول: 2022/10/18 تاريخ النشر: 2022/12/15

ملخص:

من المتَّفق عليه أنَّ الإبداع الأدبي بمختلف أجناسه التي يتمثَّلُها المبدعُ جاعلا منها قالبا أدبيا للتَّعبير عن أفكاره ورُؤاه وتصوُّراته للمجتمع والحياة لا يخلو من نظرة فردية خاصة به تُجاه ما يُحيطُ به من قضايا واهتمامات ذات صلة مُباشرة بالفرد والمجتمع، فيسعى من موقعه جاهدا لإصلاح ما يُمكنُ إصلاحه مُعتمدا في ذلك على الآليات التي يُتيحُها الجنس الأدبي الذي يكتبُ فيه، وضمن هذا الإطار –دائما– يسعى المبدع لتضمين نُصوصه الإبداعية نقدا اجتماعيا وثقافيا لمختلف الظَّواهر التي تسترعي انتباهه ويرى أنَّها تُمثّلُ عَقبةً في طريق الرّسالة التي يتولَّاها المبدعون، إلا أنَّ نقده هذا يتَّخذُ لبُوسا فنيا تتماهى فيه الحقائق مع المتخيَّل، تجمعُهُما لغة الإبداع بما تحمله من استعارات ومجازات وصُور فنّية وأحداث مُتخيَّلة وأسماء مستعارة وتوظيفٍ للرَّمز بمختلف أنواعه... فيرسمُ بذلك واقعا مُوازيا، وهو ما سنُحاولُ إثبات جانب منه من خلال بعض القصص القصيرة المختارة من مجموعة "جلالة عبد الجيب" للسَّعيد بوطاجين.

كلمات مفتاحية: السَّعيد بوطاجين؛ جلالة عبد الجيب؛ المثقَّف؛ السُّلطة؛ الإبداع الأدبي.

Abstract:

It is agreed that literary creativity in its various forms, represented by the creator who makes from them a literary template to express his thoughts, visions and perceptions of society and life, is not without his own individual view towards the surrounding issues and concerns which are directly related to the individual and society. He seeks from his position as an intellectual to reform what can be reformed, relying on the mechanisms and techniques offered by the literary genre

المؤلف المراسل: طيبي بوعزة.

he/she writes in. Within this framework, the creator always seeks to include in his creative texts a social and cultural criticism of the various phenomena that draw his attention and which represent an obstacle to the message undertaken by creators. However, this criticism takes an artistic guise in which facts are identifiable with the imaginary. Creativity brings them together through metaphors, imagery, imaginary events, pseudonyms, and the use of all kinds of symbols... Thus, he draws a parallel reality to the one he lives. We will try to prove part of it through some selected short stories from the collection "His Majesty Abdel Jeeb" by Said Boutadjine.

Keywords: *Said Boutadjine; His Majesty Abdel-Jeeb; the intellectual ; authority; literary creativity*

1.توطئة:

غالبا ما يتوجَّهُ المبدعُ في نتاجاته الأدبية إلى مُتلقٍ افتراضي، مُحاولا مُخاطبته ومُحاورته في قضايا مُختلفة يبثُّها في ثنايا نُصوصه الأدبية، ويُحاولُ أن يدنُو من واقعه المعيش بتمثُّل زوايا مُنوَّعة منه، ويحرصُ في خضمّ ذلك على الإجابة عن أسئلة يتوقَّعُ منهُ طرحها أثناء فعل القراءة، مع تركيزه الدَّائم على مُناقشة تفاصيل يعتقدُ أنَّ المتلقي سيقفُ عليها مُقارنة بغيرها ممَّا يُؤثّثُ به عالمه الإبداعي، فالمبدعُ لم يعد يكتُبُ لنفسه مُنكفئا عليها مُكتفيا بها إلا في بعض الحالات النَّادرة والخاصة، بل إنَّ غايته في الوقت الرَّاهن تمتدُّ إلى اقتناص أكبر عدد مُمكن من القُرَّاء، وهي الفكرة ذاتها التي تقُوم عليها فكرة تسويق العمل الأدبي، بل إنَّ فكرة طبع العمل الأدبي في حدّ ذاتها تُعبّرُ عن مقصدية الكاتب ورغبته في خوض نقاش مع المتلقي حول رُؤيته وأفكاره وآرائه وفلسفته التي يُضمّنُها أعماله الأدبية، وهو ما يظهرُ في النَّدوات التي تُقام بعد صُدُور العمل الأدبي تعريفا به وتقديما له وإثراء لمضامينه، ومتى غابت مقصدية المبدع في مُحاورة المتلقي فإنَّ العمل الأدبي يفقدُ بعضا من قيمته، ويحدثُ ذلك "إذا لم يُحقّق تواصُلا بين طرفي المعادلة: المبدع والمتلقي، وأوَّل ما ينبغي أن ينتبه إليه الأديب في تحقيق التَّواصُل هو الموازنة بين القُدرات التَّخيلية لدى المتلقي، لأنَّ المتلقي لا يُمكن أن

ينفعل أو يتأثَّر بشيء لا يعرفُه"[1]. وبعبارة أخرى فلا بُدَّ للمبدع أن يُخاطب المتلقي فيما له فيه باعٌ أو قدر مُعيَّن من المعلومات والمعارف.

يتوجَّهُ المبدعُ في بعض الأحيان إلى فئة مُعيَّنة دُون سواها ويظهرُ ذلك في طرقه لمضامين فلسفية وفكرية لرُبَّما تستعصي على غيره، وهو ما نعثُرُ عليه في المجموعة القصصية "جلالة عبد الجيب" لـ"السَّعيد بوطاجين" والذي يبدُو أنَّه يُمارسُ نوعا من النَّقد الحكائي في قصصه التي ضمَّنها المجموعة. يقُولُ في المقدّمة: "لا بُدَّ أنَّ في هذه النُّصُوص ما يُعجبُ القارئ وما يُنفّرُه، وهذا أمرٌ طبيعيٌ، لذا على النَّقد أن يكون حاضرا بعلمه، أن يقول كلمته بحُرّية، ذلك أنَّنا لا يُمكنُ أن نرتقي بسردنا دون نقد موضُوعي يُؤسَّسُ على معرفة وقُدرات تُؤهّله إلى قراءة مُركَّبة للمُنجز"[2] فالمبدعُ – والسَّعيد بوطاجين تحديدا– يعلمُ جيدا أنَّ تلقي نُصُوصه الأدبية لن يكون على مستوى واحد، فبقدر ما ستتَّفقُ معه فئة وتُشاطره الرَّأي وتحتفي بنُصُوصه ستُناصبه فئة أُخرى العداء، في حين هناك من يكتفي بالرَّفض والشَّجب دون تعليل أو تبرير، ومثل هذا التَّوقُّع يُمثّلُ الوَضع الطَّبيعي في استقبال أيّ نص أدبي إبداعي.

يُؤسّسُ "السَّعيد بوطاجين" ثقافة الاختلاف في استقبال النُّصُوص الأدبية، وهو اختلاف مبنيٌ على أُسُس علمية وموضوعية واضحة، وهو –ذاته– ما يُمارسُه في نتاجاته الأدبية الإبداعية ذات النَّفس السَّاخر. يُردفُ قائلا: "نحنُ لا نكتبُ عسلا أو مُقدَّسات، إنَّما حكايات بطرائق مخصُوصة، وفي هذه الحكايات والطَّرائق ما يحتاجُ إلى بصيرة وإلى آراء ومواقف، أمَّا إن أصبحنا يقينين فإنَّنا نغدُو خطرا على الإبداع والجمال والحياة والعقل، لذلك وجب الوُقُوف مع النَّقد لأنَّه مُكمّلٌ، وله من الأدوات ما يكفي للكشف عن مواطن ضُعفنا وقُوتنا"[3] يُعلن "السَّعيد بوطاجين" لجوءه إلى الحكي الذي قد يحملُ في طيَّاته الحقيقة أو عكسها، فهو يُضمّنُه نقدا اجتماعيا وفكريا وأدبيا لما يُحيطُ به، فيُلبسُ قصصه لبُوس النَّقد، ويدعُو غيره لإلباس نقده لهذه القصص ما يتَّفقُ وقناعاته ورُؤيته الخاصة لمضمون القصَّة. إنَّه يستعين بالقصَّة لتمرير نقده للأوضاع الثَّقافية والأدبية، فيُحاولُ أن يستثمر بُعدها الوظيفي في المجتمع، ويتمثَّلُ مفهوم الحكاية التي تهدفُ إلى "الكشف عن أشياء أبعد من مُجرَّد التَّفسير اللُّغوي، ولذا فإنَّ تتبُّع الحكايات ومُحاولة كشف ما تنمُّ عنه وما تنطوي

عليه من مُضمرات نسقية سيُفيدُ كثيرا في التَّعرُّف على السّيرة الذَّاتية لا للشُّعراء بل للثَّقافة ذاتها... فالحكيُ هو تقنُّعٌ وتستُّرٌ، ولذا فإنَّ ما لا يُمكنُ قوله في العلن هو ما تتولَّى الحكاية التَّعامل معه، ومن ثمَّ فإنَّ الحكايات مخزنٌ نسقيٌ مُهمٌ... نجدُ فيه الخلاصة الثَّقافية بما للثَّقافة من هواجس وما فيها من رغبات مقموعة"[4]. إنَّ توظيف الحكاية لتمرير أحكام نقدية أو نقد المشهدين الأدبي والثَّقافي ليس بالأمر الجديد في الأدب العربي، بل نعثرُ له عن جُذُور في الأدب القديم، فهناك نماذج كثيرة من الحكاية النَّقدية نُلفيها مبثوثة في الكُتب التُّراثية ككتاب "الأغاني" لأبي فرج الأصفهاني و"الحيوان" للجاحظ، أمَّا في العصر الحديث فيمكُن أن نستحضر بعضا من كتابات "طه حسين" مثل "حديث الأربعاء".

وتبعا لما سبق سنلجأُ في تعاملنا مع النَّماذج القصصية المختارة من مجموعة "جلالة عبد الجيب" إلى قراءة ثقافية لها والتي تستندُ على آليات النَّقد الثَّقافي، وذلك "بأخذ النَّص مقرُونا في تفاعُلاته مع المجتمع، وتقاطُعاته مع أنظمة الإنتاج وأنظمة الاستقبال، وذلك للكشف عن التَّعقيدات القائمة فيما بين النُّصوص والجمهور"[5] ولإيضاح تفاعُلات النَّص مع المجتمع سنعمدُ إلى إسقاط مضمُون القصَّة على المشهدين الأدبي والثَّقافي في المجتمع، ومن ثمَّ "قراءة النُّصُوص قراءة خاصة بوصفها حالة ثقافية، فالنَّصُ ليس نصا أدبيا وجماليا فحسب، ولكنَّه أيضا حادثة ثقافية، لذلك فإنَّ الدَّلالة النَّسقية فيه ستكُون هي الأصل النَّظري للكشف والتَّأويل"[6] أي البحث عن النَّسق الثَّقافي المضمر في القصَّة، وتقديمه من وجهة نظر الكاتب (السَّعيد بوطاجين) والموازنة بين تمظهراته في القصَّة وتلك التي يستهدفُها الكاتب في المجتمع.

2. قضايا ثقافية وفكرية من منظور السعيد بوطاجين في "جلالة عبد الجيب":

قبل التَّطرق لأهمّ القضايا الثَّقافية والفكرية المتضمَّنة في مجموعة "جلالة عبد الجيب" للسَّعيد بوطاجين وجب أن نُشير أنَّ زاوية مُعالجتنا لها ستكون من وجهة نظر النَّقد الثَّقافي، لأنَّه مُناسب للغاية المرجوة من البحث، وتبعا لذلك، سيتمُّ الوُقُوفُ على مُختلف الخطابات الأدبية وتحليلها وفقا لمعايير ثقافية وسياسية واجتماعية وأخلاقية لاستخلاص بعض الأنساق الثَّقافية المضمرة في المجتمع داخل النَّص الأدبي وخارجه. وفيما يلي تفصيل لأهم القضايا الثَّقافية والفكرية:

1.2. المثقَّفُ من منظور السَّعيد بوطاجين:

يتطرَّقُ "السَّعيد بوطاجين" في مجموعته القصصية القصيرة "جلالة عبد الجيب" إلى راهن الشَّاعر بوصفه مُثقَّفا في الجزائر، فيعرضُ لنا جانبا لم يعُد سرًا في حياته العلمية والعملية، ففي قصَّة "أصبحَ فاصلةً" يُوردُ الآتي: "كتب الشَّاعرُ قصيدة مدحٍ في جلالته فأكرمهُ بستَّة دنانير، وقال له: انحن. ثم كتب ثانية فمنحه خمسة وقال له: انبطح جيّدا أمام سيّدك، وفي الثَّالثة تصدَّق عليه بأربعة وخاطبه: اركع، وفي الرَّابعة رمى له ثلاثة وأمره: اسجُد خاشعا، وفي الخامسة قذفه بدينارين ونهره: التقطهما وقبّل قدم مولاك، وفي السَّادسة أعطاه صفعة وركله مُوبخا: قفْ ثم تقوَّس باحترام، وفي السَّابعة رأى النَّاس شاعرا يرغبُ في الوُقُوف كالنَّاس، لكنَّه لم يستطع. أصبح فاصلة من شدَّة الانحناء"[7]. ولأنَّ الطَّرف الثَّاني في القصَّة/الواقع هو الملك الذي يُمثلُ السُّلطة فيُمكنُنا أن نعُدَّ الشَّاعر مُثقَّفا، خاصة إذا راعينا أنَّ "تعريف المثقَّف ليس إجراء نظريًا سهلا بل هُو عملية تتَّخذُ موضُوعا لها حقلا مُتغيّرا، وحركيا خاصا بالأفكار والأيديولوجيات التي ترتبطُ بصفة غير مُباشرة ومُقنعة بمصالح موضُوعية اقتصادية ومادية"[8] إنَّ للأمر علاقة بالوظيفة التي يُؤديها المثقَّفُ في حقله، فوظيفته في السّياسة تختلفُ عن وظيفته في الأدب والنَّقد، ومع ذلك تبقى "مهنة المثقَّف هي التَّفكير بالأفكار الموجودة، بعيدا عن التَّغيير الاجتماعي والسّياسي، انطلاقا من فرديته"[9]. والشَّاعر أقدرُ النَّاس على الانطلاق من ذاتيه في التَّعبير عن الأفكار في المجتمع، وهو "الشَّخص الذي يحملُ في ذهنه أفكارا من إبداعه هُو، أو من إبداع سواه، ويعتقدُ أنَّ تلك الأفكار جديرةٌ بأن تجد طريقها إلى التَّطبيق في حياة النَّاس، فيُكرّسُ جُهده لتحقيق هذا الأمل"[10]. ومثل هذه الميزات تُؤهّل الشَّاعر لتأدية دور المثقَّف في المجتمع.

لقد اختصَّ "السَّعيد بوطاجين" غرض المدح دُون غيره من الأغراض الشّعرية، وأيُّ مدح؟ إنَّه المدح في حضرة صاحب الجلالة والفخامة، ما يُحيلنا مباشرة إلى شُعراء البلاط والتكسُّب كالمتنبي وأبي نواس وغيرهما، وهي ظاهرة انتشرت بشكل لافت للانتباه مُنذ مطلع الألفية الجديدة، خاصة في أوساط شعراء الشَّعبي الذين اتَّجهوا إلى تمجيد الأشخاص وتجميل صُورهم وتبرير أفعالهم والتَّسويق لمشاريعهم، بل أصبح فعلُ الكتابة تحت الطَّلب ظاهرة مُكرَّسة ترعاها مُؤسَّسات الدَّولة وتُقيمُ لها

المهرجانات والمسابقات وتُرصدُ لها الجوائزُ القيّمة، ولطالما قُدّم الشَّاعر الشَّعبي لاستقبال مواكب المسؤولين، ممَّا يجعلُ منه مُثقَّفا مُوظَّفا، فيُصبحُ "قبل كُل شيء وكيل الدَّولة وعميلها أو ما يُمكن تسميته بوكيل التَّنمية"[11]. ويُمكنُ إسقاط هذه الصُّورة على نماذج بشرية أخرى من أدباء ورياضيين ومسؤولين ممَّن يتولون مناصب عليا في الدَّولة.

لقد استلذَّ الشَّاعر عطايا صاحب الجلالة ورآها طريقة سهلة لكسب المال ما دفعه إلى تكرار التَّجربة ولكنَّ مقدار الأُعطية بدأ يتناقصُ، ومع كُل أُعطية تتغيَّر مُعاملة الملك له، لتبلغ أوجَّها عندما صفعه ووبَّخه، وممَّا يُلاحظُ أيضا تمادي الشَّاعر في فعلته مُنساقا خلف طمعه، فقد كرَّر فعلته سبع مرَّات بلا حياء أو تفكير في مكانته كشاعر في المجتمع.

يكشفُ "السَّعيد بوطاجين" طريقة السُّلطة الممنهجة والمدروسة جيّدا في الاستحواذ على المثقَّف (الشَّاعر) ففي ظلّ الظُّروف المعادية للإبداع الأدبي وتردّي مكانة الأديب في المجتمع ناهيك عن القوانين التي لا تحمي إبداعه ولا تشجّعه، يرى أغلبُ الشُّعراء التَّودّد إلى السُّلطة ومحاباة المسؤولين أقصر طريق لتحقيق طُموحاتهم كنيل مناصب مُعيَّنة في قطاعات الثَّقافة والإعلام والتَّربية وكسب بعض المال، وهو بذلك يجعلُ من رسالته أداة طيّعة في أيدي السُّلطة، وبهذا يُعرّي "السَّعيد بوطاجين" المثقَّف الذي يفقدُ مكانته كُلَّما أظهر جشعه وطمعه وتودُّده للغير، كما أنَّه ينسلخُ عن مجتمعه، ولا يتفطَّن إلا بعد أن يجد نفسه غريبا عنهم وعن نفسه. وفي السّياق نفسه يُوردُ "السَّعيد بُوطاجين" القصَّة الآتية: "اكترى الشَّاعرُ بغلا وحمل دواوينه إلى القصر، فضحك الحاجبُ: سبقك العشرات. فردَّ عليه مُنتشيا: سأمدحه مدحا مُبينا. قرأ عليه في الشَّهر الأوَّل ألفي قصيدة، وفي الثَّاني ألفا، وفي الثَّالث خمسمائة، وفي السَّابع مائتين، وفي العاشر خمسين، فأوقفه فخامته: لماذا تمدحني؟ فردَّ عليه: لأنَّك خلقتنا في أحسن تقويم. فسأله فخامته: تريدُ مالا أم ذهبا؟ فأجابه الشَّاعر: الرَّأي رأي مولانا. فجاءه الخدمُ بكيس وقالوا له انقشع فورا، فانقشع مُتسائلا: أكُلُّ هذا من أجل كيس من التّبن؟ سأُكرّر التَّجربة علَّني أحصلُ على النّخالة"[12].

2.2. وظيفةُ الشّعر من منظور السّعيد بوطاجين:

تُطرحُ وبشدَّة في الآونة الأخيرة مسألة جدوى العُلوم الإنسانية في ظلّ سطوة العُلوم الدَّقيقة والتّقنية والانتشار الرَّهيب الذي صاحبهما في مجالي التّكنولوجيا والثَّورة المعلوماتية، وقد انعكس ذلك سلبا على طلبة الأدب والنَّقد واللُّغة على وجه الخُصوص، وقد أصاب جُزءٌ من ذلك المبدع، وفي هذا السّياق يُوردُ "السعيد بوطاجين" القصَّة القصيرة الآتية بعنوان البردعة: "تفقَّد فخامته الإسطبل الكبير ليُهنّئ الكائنات الصَّغيرة بعيد المقبرة، ففاجأه شبحٌ يخطُّ كلمات وارفة في المذود، توقف وسأله من عليائه: ما هي وظيفتك أيُّها العبد؟ فأجابه الكائن الصَّغير: أنا شاعرٌ كبيرٌ، أكتبُ قصائد موزونة ومُقفاة. اندهش فخامته من "موزونة ومقفاة" وقال: هل هي أبيات بأحمر الشّفاه والحنَّاء؟ فردَّ مُنحنيا: أجل، إنَّها أحاسيس عاطفية. فصكَّه فخامته مستاء: ألا تستحي أيُّها النَّذل؟ ثم أمر بتجريده من البردعة ونقله إلى الخم لئلا يُوقظ الموتى بمشاعره المعطَّرة، وقال الشَّاعر: سأكتبُ فأرا وضفدعة"[13]. يتَّضح من القصَّة أنَّ "السَّعيد بُوطاجين" يطرقُ قضايا عدَّة ذات صلة مباشرة بالمشهد الأدبي في الجزائر، هي:

– النَّظرة الدُّونية التي يحظى بها الشَّاعر في مُجتمعه ومن قبل السُّلطة على وجه الخصوص، فالحاكمُ لا يرى في الشَّاعر إلا عبدا يلجأُ إليه في أوقات مُعيَّنة إمَّا لتلميع صُورته أو التَّرويج لسياساته في البلاد، وهو أمرٌ معروف عنها، فالسُّلطة تدلُّ "على هيمنة يُمارسُها من يُمسكُ بسلطة من نوع ما تُؤدي بالذين تتوجَّهُ إليهم إلى الإقرار بتفوُّق يُبرّرُه دوره في القيادة والتَّوجيه"[14].

– جهل الحُكام والسَّاسة بأبسط المعارف التي أصبحت مع الزَّمن في حُكم المسلَّمات والبديهيات ويظهرُ في دهشة صاحب الجلالة من عبارة "موزُونة ومُقفَّاة" ولعلَّ هذه العبارة هي ما يتقاسمُه الجميع حول مفهوم الشّعر على الأقل كمكتسبات قبلية تمَّ تلقّيها في مختلف الأطوار التَّعليمية، لكنَّ صاحب الجلالة يجهلُ معنى العبارة ومدلولها، وهُو بذلك يُخالفُ المتعارف عليه من كون شخصية الرَّئيس أو صاحب الجلالة ينبغي أن تكون صاحبة ثقافة ورصيد لا بأس به من المعارف والمعلومات في مختلف المجالات والفُنون (مُثقَّفا حسب أبسط تعريف لمصطلح المثقَّف). ومثل هذا الموقف

يعكسُ موقف السُّلطة في سياستها إزاء الأدب والفنون، فهي الإهمال واللامبالاة والتَّهميش المسلَّط على رُوادها وأعلامها.

– تُحيلنا القصَّة أيضا على وظيفة الشّعر الحقيقية، وهي وظيفة تُشكلُ خطرا على السُّلطة، فالشَّاعرُ الحقيقي هو من يلتقطُ أصغر التَّفاصيل من الواقع المعيش وينتبهُ لأدنى طُموحات وآمال أفراده، ولطالما شكَّلت القصيدة الشّعرية المهاد النَّظري للثورات الشَّعبية ضدَّ السُّلطة وجبروتها، و"السَّعيد بوطاجين" بهذا يتمثَّلُ سبب طرد أفلاطون للشُّعراء من مدينته الفاضلة، فهم القادرون على "تغيير عقلية المجتمع، وتوعيته وتعويده على تحكيم العقل والمنطق، بدل الأهواء والمصالح الآنية"[15].

تضمُّ المجموعة القصصية قصَّة أُخرى تُناقشُ وظيفة الأدب في المجتمع من منظُور ساخر، جاء فيها الآتي: "نشر مُدير الثَّقافة ديوانا يتغنَّى فيه بالشَّعب الأبي الذي سيصنعُ إبرة واحدة بعد قُرون من اللَّهو والتَّثاؤُب المقفَّى. قرأ ثلاثة مواطنين الكتاب واحتفوا بالشَّاعر الفذ. وبعد يوم واحد استدعاه الحاكم. جلس الشَّاعر مُقوسا كفاصلة بربطة عُنق مُرتعدة. نظر الحاكم إليه من السَّماء الثَّامنة ووبَّخه: خذلتني أيُّها الدَّرويش، ظننتك رجلا مثلنا. أنت مطرُودٌ من منصبك لأنَّك إساءة إلى الدَّولة. تكتبُ شعرا على حساب شرف الوظيفة وكرامة الأُمَّة، سنبيعُ نفطا كثيرا ونشتري لها خيطا وإبرة"[16]. بإمكاننا الوُقُوف على عديد الإشارات التي تنتقدُ المشهدين الأدبي والثَّقافي في الجزائري. نذكرُ منها:

– مسألة احتكار نشر الكتاب وطبعه لذوي المناصب الحُكومية والمقرَّبين منهم، فهذا مُدير الثَّقافة شخصيا يُصدرُ ديوانا يمدحُ فيه السُّلطات لأنَّها تمكَّنت أخيرا من صُنع أوَّل إبرة محلّية، في إشارة إلى احتفاء المثقَّف الموظَّف بأبسط –إن لم نقل أتفه– إنجازات الدَّولة تملُّقا وطلبا للودّ وتنفيذا لبُنود التَّنصيب التي تمَّ الاتفاقُ عليها مُسبقا.

– العُزوف عن فعل القراءة خاصة إذا تعلَّق الأمرُ بالأدب بمختلف أجناسه، يُحيلُنا "السَّعيد بوطاجين" إلى ظاهرة غير صحية تفشَّت مُؤخَّرا في المشهد الأدبي الجزائري، فلا يقرأُ للمُبدع إلا المقرَّبين منه، ولرُبَّما على استحياء منهم، يدفعُهم إلى ذلك شعُورهم أنَّ القراءة له ليست إلا واجبا من واجبات الصَّداقة التي تربطُهم به.

– فعل الرّقابة الذي تُسلطُه السُّلطات السّياسية على مختلف الإصدارات الأدبية والفنية، والذي يحدُّ من حُرية المبدع في طرقه لمختلف المضامين السّياسية والاجتماعية والاقتصادية ذات العلاقة المباشرة بالفرد والمجتمع.

– التّعبيرُ عن هُموم الفرد والمجتمع لا يتوافقُ وشُغل وظيفة سامية في الدّولة، إذ لا بُدَّ من الفصل بينهما والمشهد الأدبي الجزائري عرف عديد الحالات لأسماء توقّفت عن الإبداع الأدبي –شعرا ورواية ونقدا– بمُجرَّد توليها مناصب سامية في مُؤسَّسات الدّولة.

يتّضحُ ممَّا سبق أنَّ "السعيد بوطاجين" يُمارسُ نوعا من النّقد الثّقافي في كتاباته الإبداعية، فهي تتمثّلُ "نشاطا إنسانيا يُحاولُ دراسة الممارسات الثّقافية في أوجُهها الاجتماعية والذّاتية بل في تموضعاتها كافة بما في ذلك تموضعها النُّصوصي"[17] وبالنّظر إلى خبرته الإبداعية والثّقافية التي تمتدُّ لعقود من الزّمن يُعلنُ "السّعيد بوطاجين" بمنتهى الصّراحة والجرأة أنَّ المثقّفُ جُنديٌ مثله مثل المثقّف الموظّف الذي يتلقّى تعليماته من مرؤوسيه الذين يجهلُ هويّتهم غالبا، ذلك "أنَّ الرّجل السّياسي يملكُ جيشا من الموظّفين يُطبقُون حرفيا تعليماته وتوجيهاته، وعند ضرُورة إعادة تكييف ومُلاءمة المجتمع المدني مع التّحولات التّاريخية التي تجتاحُه، يجدُ السّياسي نفسه في حاجة ماسة إلى جيش من نوع آخر هو جيشُ المثقّفين بمعنى مُنتجي ومُبدعي الخطابات، أي القيم"[18] فللمثقّف دورٌ ثانوي في السّلطة من منظُور صاحبها، فالسّياسي لا يُشاركه قراراته أو سياساته ولا يطلبُ مشورتُه ولا ودَّه، ولا يستحضرُ قراءاته الاستشرافية قبل اتخاذ القرارات المصيرية، بل يتمُّ اللُّجُوء إليه لإضفاء نوع من الشّرعية على سياسات الحكم فقط، وليعمل على توجيه الرّأي العام بما يتناسبُ ومشاريعهم، وهو نوعان حسب "السعيد بوطاجين": مُنتجُو الخطابات ويشملُ أولئك المشتغلين في حُقول الفلسفة والسّياسة والاقتصاد وغيرها ممَّن تعجُّ بهم وسائل الإعلام تحليلا وتفكيكا لمختلف القضايا التي تشغل الرّأي العام. ومُبدعو الخطابات في الأدب بمختلف أجناسه بالإضافة إلى الأقلام الصّحفية.

هذان النّوعان من منظور "السّعيد بوطاجين" وكُلٌ من موقعه يُنتجُ نُصُوصا تحت الطّلب، والسُّلطة هي من تُسطّرُ لهُ الخُطُوط العريضة وما عليه إلا تأثيث الخطاب بما يُحقّقُ رغبتها ويحفظُ مصالحها على المدى القريب والبعيد، ذلك أنَّ "محنة الثّقافة مع السُّلطة وأخصُّ بذلك السّياسة،

تكادُ تكُونُ معرُوفة لدى غالبية النَّاس، وإذا كان السُّلطان السّياسي قد استعان بالمثقَّف في كثير من الأحيان ليُبرر نُفُوذه الشَّرعي أمام الجُمهور، فقد كان يُدركُ أيضا أنَّ تلك الوظيفة للمُثقَّف لا تنتمي إلى الثَّقافة، وهي كذلك تقفُ بعيدا عن السُّلطان السّياسي"[19] فطبيعة العلاقة بين المثقَّف والسياسي أفرزت بعض المفاهيم الجديدة كالمثقَّف الأجير والمثقَّف العميل، وهما يمثلان المثقف الذي يتخلَّى عن دوره الرّيادي في المجتمع ويخضعُ لأهواء السّياسة ليصير بُوقا من أبواقها الكثيرة، يُروجان لسياساتها ويُبرّران قراراتها ويُحاولان إقناع العامة بجدوى مخطَّطاتها.

3.2. انقلاب المفاهيم والقيم المتوارثة من منظور السَّعيد بوطاجين:

من القضايا التي ناقشها "السَّعيد بوطاجين" في مجموعته "دلالة عبد الجيب" انقلاب المفاهيم والتَّصورات المتعارف عليها في الأوساط الثَّقافية والفكرية والأدبية، وها هُو في قصَّة "لا يُؤتمنُ" يضعُنا أمام مُفارقة بين الماضي والحاضر، جاء في القصَّة: "حمل عبد الله البري كتابه إلى الخليفة، فسأل المأمون: هل هو نافعٌ؟ فقالُوا له أجل، كتاب في المنطق، فردَّ مُبتهجا: أعطوه مثله ذهبا. فرح المترجمُ واعتكف يقرأُ ويكتبُ، وبعد قُرُون جاء الذُّباب، تبدَّدت عينا عبد الله البحري وتعب، وإذ أنهى عمله حمل الكتاب إلى قصر الذي لا يُؤتمن. فسألهم السُّلطان: هل الكتاب في كرة القدم أم في الطَّبل والمزمار؟ بلى، في علم الفلك والمجرات. فردَّ مُمتعضا: أعطوه ثلاثمائة جلدة وخُذوه إلى الحبس ليبرأ من الكُتب التي لا تنفع"[20].

تبدُو المفارقة من خلال عناية السُّلطة بالعلم والعلماء قديما وحديثا عبر استحضاره للخليفة العبَّاسي "المأمون" الذي كان جزيل العطايا لكُل من يُؤلّفُ كتابا أو ينقلُه إلى اللُّغة العربية من اللُّغات الأخرى، حتَّى أنَّ هناك بعض الرّوايات نقلت إلينا أنَّه كان يُعطي وزن الكِتاب ذهبا لصاحبه، والأكيد أنَّ اهتمام الخليفة بالعلم والعُلماء سببٌ من أسباب قُوة الدَّولة وعظمتها، أمَّا الآن، فعلى النَّقيض تماما فلا أحد يهتمُّ بما يصدُر من الكُتب إلا المؤلف ودائرة ضيّقة من مُقرَّبيه، بل إنَّ الوزارة الوصيَّة ذاتها لا تملكُ دليلا سنويا لأهمّ الإصدارات الحديثة في مُختلف العُلوم.

يُناقشُ "السَّعيد بوطاجين" في هذه القصَّة أيضا مسألة تشوُّه الذَّوق العام وشُذوذه وانشغاله بالثَّانوي التَّافه على حساب العلم الأصيل، فبعدما كان الخليفة يهتمُّ بالفلسفة ها هو نظيره الآن

يبحثُ عمَّا يروي غريزته الطُّفولية وشهوته النَّفسية (كرة القدم، الطَّبل، المزمار) لقد تشوَّه الذَّوقُ فتغيَّرت الجائزة معه، فبعدما كانت ذهبا أصبحت جَلدا وحبسا.

تستوقفُنا بعض الإحالات التي اختصر من خلالها "السَّعيد بوطاجين" الكثير من المقولات والتَّصورات، نذكرُ منها:

– بين عبد الله البري والبحري: الأوَّل حمل إلى الخليفة كتابا في المنطق فأُعطي وكُوفئ والثَّاني في علم الفلك والمجرات فسُجن وعُوقب، فالكتابان مُهمَّان ومع ذلك اختلفت الجائزة، لأنَّ الخليفة بثقافته وحكمته وطُموحه وغاياته تغيَّر، فالأوَّل كان "الخليفة" فهو خليفة المسلمين ينتهجُ في حُكمه نهج الخلفاء الرَّاشدين القائم على العدل والمساواة وتثمين العلم والعُلماء والرَّفع من مكانتهم والإعلاء من شأنهم وتحفيزهم، ومع الثَّاني أصبح الخليفة سُلطانا انفرد بالحُكم والسُّلطة وأخضع مفاصل الدَّولة لأهوائه واستغلَّ ثرواتها لإشباع شهواته وأغدق على المقربين منه بالهدايا والجوائز، والنُّموذج الثَّاني الأكثر انتشارا في البلاد العربية وهو الوتر الذي ركَّز عليه "السعيد بوطاجين" في بنية القصَّة.

– الحاشية وبطانة السُّوء: وهي التي تُزيّن للسُّلطان سُوء عمله، وتُداري عنه الحقائق، ولا تحتكمُ لشيء إلا المصلحة الخاصة، فمع الرَّجل الأوَّل صدقت الحاشيةُ الخليفةَ وأبلغُوه أنَّ الكتاب المترجم فتحٌ علمي سيُضيفُ إلى الأدب العربي الكثير، وفي الثَّاني أصبحت الحاشية ذُبابا، وهو مُصطلحٌ مُعاصرٌ استُمدَّ من مواقع التَّواصل الاجتماعي (الفايسبوك) وعادة ما يُطلقُ على أُولئك الذي لا شُغل لهم إلا تملُّق الحاكم وتلميع صُورته والدّفاع عنه ومهاجمة الشُّرفاء وتشويههم. وتوظيفه هنا إشارة إلى من يتولون مناصب سامية ويتعمدُّون سياسة التَّهميش والإقصاء ضدَّ فئة كبيرة من المبدعين والمثقَّفين، وعلى هذا النَّحو تبدُو القصَّة وقصص "السَّعيد بوطاجين" مهتمَّة "بأخلاقيات المجتمع وحُقوق الإنسان والعمل السّياسي بعيدا عن الإقصاء وهي أساسا تنطلقُ من المضامين السّياسية وتُحاولُ علاجها وإعطاء وجهة نظر فيها وتهدفُ من كُل هذا إلى إعادة هيكلة الخريطة الاجتماعية من خلال تعرية كُل أشكال الهيمنة والتَّسلط التي تمارسُ ضدَّ الإنسان"[21].

إنَّ التَّهميش والإقصاء في حقيقة الأمر لا يصدرُ من السُّلطان وحاشيته فقط، بل أضحى سُلُوكا ونمطا طال فئة من الشَّعب تمتلكُ –في نظرها– ما يُغنيها عن الأدب والفكر والثَّقافة،

فجعلتها في ذيل أولوياتها، يذكرُ لنا "السَّعيد بوطاجين" صنفا منهم، إنَّهم الأغنياء، يقولُ في قصَّة عنونها بـ"لبيك": "سألهُ الغنّي: وظيفتك؟ فأجابه: كاتبٌ. فقال له مُتعجّبا: ماذا قُلت؟ فردَّ عليه: أُؤلفُ حكايات. فسأله: هل لك بيتٌ؟ فأجابه: لا بيت لي ولا مال. لماذا تكتبُ إذن؟ فردَّ عليه: أُعلِمُ النَّاس الفلسفة والفنَّ والجمال وأزرعُ الوعي. احتار الغنّي وسأله هل يستمعُون إليك؟ فأكَّد الكاتب: طبعا، استغرب الغني وقال له: جرّب. نادى الكاتب النَّاس: تعالوا أمنحكم حكمة. جاءهُ قطٌ وكلبٌ وصرصورٌ ومجنونٌ وهمس الغني: تعالوا أمنحكم علفا، فانبطح أمامه السّياسي والمتشرّدُ والطَّالب والكافرُ والمؤمنُ وهم يُردّدُون: لبيك لا مثيل لك لبيك"[22]. ينقلُ لنا "السعيد بوطاجين" من خلال الحوار الدَّائر بين الغني والفقير وجها آخر للمفارقة الثَّقافية والفكرية في الجزائر، فالنَّاس لم تعد تهتمُّ بالأدب وأصحابه بقدر ما تُقدّس المال وتعبدُ صاحبه، وكلمة الأخير مسموعة ولها وقعٌ وصدى في قلوب الآخرين، ذلك أنَّ الغني ناداهم بصوت هامس خفي فمَثَلَوا أمامه على اختلاف مستوياتهم الفكرية والدّينية والاجتماعية، عكس الكاتب الذي وعلى الرَّغم من صُراخه فلم يستجب له إلا المجنون والحيوان، مع العلم أنَّ الأوَّل يُعلمهم والثَّاني يُقدّمُ لهم علفا فهو لا يعتبرُهم إلا بهائم وهي النَّظرة الأكثر انتشارا في المجتمع (نظرة الغني إلى الفقير). الأمر الثَّاني الذي أحالنا إليه "السعيد بوطاجين" هو أنَّ الكاتب يرى في فعل الكتابة وظيفة يقتاتُ منها (سألهُ الغنّي: وظيفتك؟ فأجابه: كاتبٌ) وما كان له أن يعتبرها كذلك لولا الفاقة والأوضاع الاجتماعية الصَّعبة التي تُحيط به من كُل جانب.

وليس بالبعيد عن القصَّة السَّابقة وفي الإطار ذاته يُوردُ "السعيد بوطاجين" قصَّة تتناولُ ظاهرة انتبه لها العديد من المبدعين والمثقَّفين، وهي ظاهرة اجتماعية استفحلت في المجتمعات العربية وبدأت آثارها السّلبية تظهرُ جليا، وهي العُزوف عن الفعل الثَّقافي بمختلف تجلياته، سواء من ناحية الحُضُور أم تنشيط الملتقيات والتَّظاهرات الأدبية والثَّقافية أو الأمسيات الشّعرية وغيرها، يقولُ في القصَّة: "استضافته بلدة بني مصران ليُقدّم كتابه الجديد فضجَّت القاعة بالزَّغاريد. لم يفهم، وقال في سرّه: يا للتَّحوُّل الخُرافي، أصبح للعقل أنصار. ثم صعد المنشّطُ وقال: نُقدّمُ لكم مُفكرنا ومفخرتنا. ارتبك المفكّرُ، أخرج أوراقا مُتلعثمة وشرح. بعد الجُملة الأُولى خرج نصفُ القاعة، وفي الثَّانية ثلاثة أرباع،

وفي الثّالثة بقي مُستمعٌ واحدٌ، فقال له العالم: لماذا لم تخرج؟ فأجابه الأحدبُ: أنا الحارسُ، أنتظر خُروجك لأُغلق القاعة، كانوا يظنُّونك مُطربا فجاؤُوا ليرقصُوا، لكنَّك خذلتهم. لماذا لا تبحثُ لك عن مهنة شريفة"[23] وهي قصَّة واقعية، حدثت في السَّبعينيات مع الكاتب "مصطفى فاسي". فالأمرُ هنا تعدَّى السُّلطان والأغنياء إلى عامة النَّاس الذين لم تعد تستهويهم الثَّقافة والفكر والأدب بقدر ما تجذبهم حفلات الرَّقص والغناء.

الخاتمة:

لقد بلغ البحث نهايته وإن كان بحاجة لمزيد من الإضاءات التي يُمكنُ أن يُتوصَّل إليها من خلال البحث في نتاجات أخرى للسَّعيد بوطاجين غير المجموعة القصصية موضع البحث والدراسة أو غيره ممَّن ضمَّنوا إبداعاتهم آراءً نقدية للمشهد الأدبي والفكري والثَّقافي في الجزائر، ومع ذلك يُمكنُنا حصر أهم النَّتائج المتوصَّل إليها فيما يلي:

– يُمكننا إدراج الآراء الذَّاتية للمبدع التي تنتقدُ الأوضاع الفكرية والثَّقافية والأدبية في النّتاجات السَّردية ضمن الحكاية النَّقدية.

– لا يكادُ يخلو الإبداع الأدبي من نظرة نقدية شخصية ذات صلة بالمشهد الأدبي والفكري والثَّقافي في المجتمع وغالبا ما يعتمدُ المبدع على أحداث وشخصيات مُتخيَّلة مُوازية للواقع المعيش يُمكننا إسقاطها عليه بكُل أريحية.

– تمتاز كتابات "السَّعيد بوطاجين" بالنَّفس النَّقدي السَّاخر تُجاه الأوضاع الفكرية والثَّقافية والأدبية السَّائدة.

الهوامش والإحالات:

[1]– عبد العزيز النعماني، فن الشعر بين التراث والحداثة، الدَّار المصرية اللبنانية، ط01، بيروت، لبنان، 1991، ص13.

[2]– السعيد بوطاجين، جلالة عبد الجيب، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، د ط، 2018م، ص11.

[3]– المصدر نفسه، ص11.

[4]- عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، ط03، المغرب، الدار البيضاء،2005م، ص207.

[5]- المرجع نفسه، ص22.

[6]- المرجع نفسه، ص80، نقلا عن: أحمد موسى ناصر المسعودي – الأنساق الثقافية في تشكيل صورة المرأة في الرواية النسائية السعودية، مؤسسة الانتشار العربية، ط01، 2014م، ص29.

[7]- السعيد بوطاجين، جلالة عبد الجيب، ص21.

[8]- ينظر: محمد شكري سلام، وظائف المثقف وأدواره بين الثابت والمتغير، المستقبل العربي، السنة 18، العدد 200، أكتوبر 1995، ص66.

[9]- أحمد مفلح، دلالات مفهوم المثقف، قراءة في كتاب دور المثقف في التحولات التاريخية، مجلة تبين، العدد 08/31 شتاء 2020، ص37.

[10]- زكي نجيب محمود، مجتمع جديد أو الكارثة، دار الشروق، ط03، القاهرة/بيروت، 1983، ص322.

[11]- عمار بلحسن، أنتلجانسيا أم مثقفون في الجزائر، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط01، بيروت، 1986م، ص61.

[12]- السعيد بوطاجين، جلالة عبد الجيب، ص27.

[13]- المصدر نفسه، ص26.

[14]- هرمية غي، معجم علم السياسة والمؤسسات السياسية، تر: مجد هيثم اللمع، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط01، 2005م، ص30.

[15]- محمد بن عبد الحي، المثقف، المنزلة والدور، مجلة المعرفة، العدد 347، 1992م، ص173.

[16]- السعيد بوطاجين، جلالة عبد الجيب، ص102.

[17]- سمير خليل، النقد الثقافي من النص الأدبي إلى الخطاب، دار الجواهري، ط01، بغداد، 2012م، ص07.

[18]- علي عقيقة، من أجل بنية للأنا الوطنية، ضمن كتاب: أنتلجانسيا أم مثقفون في الجزائر، عمار بلحسن، ص110.

[19]- ينظر: عبد الإله بلقزيز، في بدء كانت الثقافة، إفريقيا الشرق، د ط، المغرب، د ت، ص 57-58.

[20]- السعيد بوطاجين، جلالة عبد الجيب، ص108.

[21]- سمير خليل، النقد الثقافي من النص الأدبي إلى الخطاب، ص14.

[22]- السعيد بوطاجين، جلالة عبد الجيب، ص109.

[23]- المصدر نفسه، ص68.

قائمة المصادر والمراجع:

1- أحمد مفلح، دلالات مفهوم المثقف، قراءة في كتاب دور المثقف في التحولات التاريخية، مجلة تبين، العدد 08/31 شتاء 2020.

2- أحمد موسى ناصر المسعودي – الأنساق الثقافية في تشكيل صورة المرأة في الرواية النسائية السعودية، مؤسسة الانتشار العربية، ط01، 2014م.
3- زكي نجيب محمود، مجتمع جديد أو الكارثة، دار الشروق، ط03، القاهرة/بيروت، 1983.
4- السعيد بوطاجين، جلالة عبد الجيب، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، د ط، الجزائر/بيروت، 2018م.
5- سمير خليل، النقد الثقافي من النص الأدبي إلى الخطاب، دار الجواهري، ط01، بغداد، 2012م.
6- عبد الإله بلقزيز، في بدء كانت الثقافة، إفريقيا الشرق، د ط، المغرب، د ت.
7- عبد العزيز النعماني، فن الشعر بين التراث والحداثة، الدَّار المصرية اللبنانية، ط01، بيروت، لبنان، 1991.
8- عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، ط03، المغرب، الدار البيضاء،2005م.
9- عمار بلحسن، أنتلجانسيا أم مثقفون في الجزائر، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط01، بيروت، 1986م.
10- محمد بن عبد الحي، المثقف، المنزلة والدور، مجلة المعرفة، العدد 347، 1992م.
11- محمد شكري سلام، وظائف المثقف وأدواره بين الثابت والمتغير، المستقبل العربي، السنة 18، العدد 200، أكتوبر 1995.
12- هرمية غي، معجم علم السياسة والمؤسسات السياسية، تر: مجد هيثم اللمع، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط01، بيروت، 2005م.